

الفصل العاشر

آراء المسلمين في التربية والتعليم

سنعرض في هذا الفصل طائفة من آراء المسلمين في التربية والتعليم ، ونخص بالذكر أصحاب الآراء الخاصة التي في تاريخ الفكر الإسلامي . ونحن نرمي من هذا الغرض أن نبين أموراً ثلاثة :

الأول أن المستشرقين الذين كتبوا في التربية الإسلامية ، ومن تبعمهم من المؤلفين في الشرق ، درجوا على تقرير آراء معينة في التعليم قالوا عنها إنها آراء المسلمين أو العرب . فيما يختص بأغراض التعليم ، ومناهجه ، وطرقه ، وأحواله . وهذا التعميم خطأ ، لأن أمور التعليم اختلفت باختلاف الأقاليم ، واختلاف أشخاص القائلين بها . وقد نجد اتفاقاً على بعض الأمور ، ولكنهم اختلفوا في أمور أخرى كثيرة مما جعلنا نفرّد لكل مفكر منهم كلمة خاصة تجمع رأيه ، وتبين ما اعتمازه . والثاني أن الآراء التعليمية لمفكر ما وحدة مناسكة في ذهن صاحبها ، فقد يذكر منهجاً خاصاً يلائم الغرض من التعليم الذي يذهب إليه وكذلك طريقة التعليم التي سلكها في تحقيق ذلك المنهج ، فلا يصح أن ننقل جزءاً من مذهب مفكر في التعليم ونترك سائر ما ذكره في هذا الصدد .

والثالث أننا نذهب إلى أبعد من ذلك . فنقول : إن مذهب المفكر في التعليم جزء أو صدى لمذهبه العام في الحياة أو فلسفته . إذ كانت الفلسفة هي النظر الشامل للحياة . وقد التزمنا هذا المنهج في بحثنا ، فبدأنا بذكر مذهب القابسي ، وهو مذهب أهل السنة . ثم بينا أن طريقته في التعليم تلائم هذا المذهب ، وجمهور الفقهاء كانوا على مذهب أهل السنة ، وهذا هو السبب في التشابه الشديد في الرأي بين المتقدمين والمتأخرين فيما ذكره من فصول متناثرة خلال كتب الفقه ، وكتب

القرآن التي تعرضت لموضوعات التعليم . وإلى جانب هؤلاء ظهر في البيئة الإسلامية طوائف أخرى تفكر بطريقة مختلفة عن جمهور أهل السنة ، كالمعتزلة والمتصوفة وغيرهم ، وسزى في هذا الفصل أن ما نذكره من مسائل التعليم المستندة إلى صاحبها هي صدى لمذهبه العام .

لهذا كله آثرنا أن نجمع أشهر آراء المسلمين في التربية ، أو آراء أشهر المرين في الإسلام في مكان واحد ، لتكون الموازنة بينهم وبين القابسي الذي يمثل فريق الفقهاء بارزة جلية .

إخوان الصفاء والتعليم :

أما إخوان الصفاء وهم فريق من الفلاسفة ، ألفوا جماعة سرية ، واعتنقوا مذهباً سياسياً ، ويقال إنهم من الباطنية ، فطنوا إلى أهمية التعليم في طبع النفوس على العقيدة فأشاروا إلى هذا بقولهم : «واعلم أن مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء ، كمثل ورق أبيض نقي لم يكتب فيه شيء ، فإذا كتب فيه شيء حقاً كان أم باطلاً فقد شغل المكان ، ومنع أن يكتب فيه شيء آخر ، ويصعب حكه ومحوه»^(١) .

وقد نظروا إلى التعليم والتربية نظراً عقلياً لا علمياً .

عرفوا العلم بأنه : «صورة المعلوم في نفس العالم ، وضده الجهل وهو : عدم تلك الصورة من النفس»^(٢) .

وعندهم أن طريق اكتساب المعلومات يكون بثلاث طرق : الأول الحواس الخمس التي بها يدرك الأمور الحاضرة في الزمان والمكان . والثاني استماع الأخبار التي ينفرد بها الإنسان دون سائر الحيوان ، يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعاً . والثالث طريق للكتابة والقراءة يفهم بها الإنسان معاني الكلمات واللغات والأقوال بالنظر فيها^(٣) .

(٣) ج ٣ ص ٢٨٤ .

(١) إخوان الصفاء ج ٤ ص ١١٤ .

(٢) ج ٣ ص ١٩٨ .

والمعرفة كلها مكتسبة وليست فطرية . وأصل المعرفة هي الحواس .
«والمعقولات التي هي في أوائل العقول ليست شيئاً سوى رسوم المحسوسات
الجزئية الملتقطة بطريق الحواس . والدليل على ذلك قوله تعالى : « والله أخرجكم
من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » (٤) .

والمقصود بالمعقولات الموجودة في أوائل العقول المعرفة البيديهية مثل : الكل
أعظم من الجزء وهذه لأوليات مكتسبة وقد رد إخوان الصفاء على القائلين بأنها
«مركوزة» اعتماداً على رأى أفلاطون مما يأتي «وليس الأمر كما ظنوا ، وإنما أراد
أفلاطون بقوله إن العلم تذكراً أن النفس علامة بالقوة فتحتاج إلى التعليم حتى تصير
علامة بالفعل ، فسمى العلم تذكراً ثم إن طريق التعليم هي الحواس ثم العقل ثم
البرهان» (٥) .

وأصحاب رسائل إخوان الصفاء محظنون في فهم أفلاطون ، لأن معنى رأيه
«العلم تذكروا والجهل نسيان» أن النفس كانت تعيش مع الآلهة في عالم المثل فعندها
معرفة بكل شيء ، ولما اتصلت بالجسد نسيت ، فإذا انكشف عنها ستار المعرفة ،
فإنها لا تكسب شيئاً جديداً ، بل تتذكر ما كانت تعرفه في عالم المثل قبل اتصالها
بالجسد .

ومذهب إخوان الصفاء شبيه بمذهب لوك الذي يعتبر أن أصل المعرفة هو
الحواس ، وأنه لا شيء في العقل لم يكن قبل ذلك في الحواس .

فإذا كانت المعرفة مكتسبة فكيف الطريق إلى تحصيلها ؟

الطريق إليها بالاعتقاد الذي يستند إلى المداومة والنظر . وفي ذلك يقولون :
«واعلم بأن العادات الجارية بالمداومة فيها تقوى الأخلاق المشاكلة لها ، كما أن النظر
في العلوم والمداومة على البحث عنها . والدرس لها ، والمذاكرة فيها ، يقوى الخلق
بها ، والرسوخ فيها . . .» (٦) .

(٤) إخوان الصفاء ج ٣ ص ٣٩٢ .

(٥) ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٦) ج ١ ص ٢٣٦ .

والمحاكاة الناشئة عن الاختلاط من وسائل نقل الأفكار . وطبع المعتقدات في النفوس : « والمثال في ذلك أن كثيراً من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربوا معهم . تطبعوا بأخلاقهم . وصاروا مثلهم . وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الأخلاق والسجايا التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر . إما بأخلاق الآباء والأمهات . . . والمعلمين والأساتذة المخالطين لهم في تصاريح أحوالهم »^(٧) .

والمحاكاة تسرى من الكبير إلى الصغير . ومن العالم إلى الجاهل ، ولذلك كانت للخواص والعلماء تقليداً وقولاً . أو كإقرار الصبيان للآباء والمعلمين تعليماً وتلقيناً^(٨) .

ومن طرق كسب المعرفة أن تؤخذ عن معلم ، لأن للمعرفة شرائط : « ليس في وسع كل إنسان معرفتها في أول مرثياته . ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم أو مؤدب أو أستاذ ، في تعلمه وتخلقه وأقاويله واعتقاده وأعماله وصنائه »^(٩) . فظن إخوان الصفاء إلى قيمة المعلم وضرورته في تلقين العلوم والمعارف ، ولكنهم اشترطوا في المعلم شروطاً تتلاءم مع مذهبهم ، وتخدم أغراضهم السياسية ، وتتفق مع الغاية من نشر دعوتهم ، فقالوا : « واعلم أيها الأخ أن من سعادتك أيضاً أن يتفق لك معلم ذكي . جيد الطبع . حسن الخلق ، صان الذهن ، محب للعلم ، طالب للحق ، غير متعصب للمذهب من المذاهب »^(١٠) .

ولا تتفق هذه الشروط إلا في جماعتهم ، كما صرحوا بذلك قائلين : « ثم اعلم أن أصحاب التاموس هم المعلمون والمؤدبون والأساتذة للبشر كلهم . ومعلمو أصحاب النواميس هم الملائكة . ومعلم الملائكة هو النفس الكلية ، ومعلمها العقل الفعال ، والله تعالى معلم الكل »^(١١) .

(٧) إخوان الصفا ج ١ ص ٢٢٦ .

(٨) ج ٣ ص ٤٢٣ .

(٩) ج ٤ ص ١٨ .

(١٠) ج ٤ ص ١١٤ .

(١١) ج ٤ ص ١٨ .

وأصحاب الناموس في الرتبة الثالثة من جماعة إخوان الصفاء . ذلك أنهم رتبوا أنفسهم مراتب أربع بعضها فوق بعض .

١ - الأبرار والرحماء ، يشترط فيهم صفاء جوهر نفوسهم وجودة بالقبول . سنهم خمس عشرة سنة .

٢ - مرتبة الرؤساء وذوى الرياضات . عمرهم ثلاثون سنة ، يشترط فيهم مراعاة الإخوان وسخاء النفس .

٣ - رتبة الملوك ذوى السلطان . وهى القوة الناموسية الواردة بعد مولد الجسد بأربعين سنة .

٤ - الرتبة الرابعة وهى التى ندعو إليها إخواننا كلهم فى أى مرتبة كانوا ، وهى التسليم وقبول التأيد ، ومشاهدة الحق عياناً ، وهى القوة الملكية الواردة بعد خمسين سنة من مولد الجسد (١٢) .

وقد نبه إخوان الصفاء فى غير موضع إلى أهمية التربية والتعليم والمحافظة فى طبع النفوس بالآراء والسجايا ، مما يصعب محوه بعد ذلك . ولكنهم أغفلوا مع ذلك حلقة أولى فى التعليم ، تعتبر من بنيانه كالأساس ، وهى مرحلة تعليم الصبيان حتى سن الخامسة عشرة .

ولعلمهم تركوا الصبيان وشأنهم يتعلمون فى الكنائس لأن تعليمهم يتم بالتحفيظ لا بالتفهيم . فهم يحفظون مبادئ العلوم التى لا يستغنى عنها فيما بعد ، وفى ذلك يقولون : كما أن الصبي إذا أحكم ما يراد منه فى المكتب استغنى عن حمل اللوح والدواة والمداد والقلم وسواده . كأنه كان يكتب به ، ويقرأ منه ويمحو ، ليحصل العلم فى نفسه محفوظاً ، من القرآن ، والأخبار ، والأشعار ، والنحو ، واللغة ، وما شاكلها مما يحفظ الصبيان فى المكتب (١٣) .

وفى هذا النص إشارة إلى منهج تعليم الصبيان فى المشرق ، وليس فيه خلاف عن المنهج المتبع فى المغرب .

(١٢) ج ٤ ص ١١٩ - ١٢٠ .

(١٣) ج ٣ ص ٦٠ .

ابن مسكويه :

وتكلم أحمد بن محمد بن مسكويه عن تعلم الصبيان في كتاب تهذيب الأخلاق ونظهير الأعراق . وقد درج في هذا الكلام على طريقة الفلاسفة ، ولكنه كأغلب الفلاسفة المسلمين ، أخذ عن الفلسفة اليونانية دون أن يتبع فيلسوفاً بعينه ، ولكنه أخذ من كل مذهب ما أعجبه ، ومزج الآراء بعضها ببعض .

ويتضح تأثيره الشديد بالفلسفة لا بالدين ، مما ذكره من الغرض من الأخلاق والطريق الموصل إلى ذلك الغرض ، فقال : غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأنعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا ، لا كلفة فيها ولا مشقة . ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي . والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي وأى شيء هي ولأى شيء أوجدت ؟ ^(١٤) .

وإذا انتهى الصبي من كمال التمييز يسمى عاقلاً : « إلى أن ينتهى إلى الغاية الأخيرة وهي التي لا تراد لغاية أخرى ، وهو الخير المطلق » ^(١٥) .
ثم إن الفضائل التي يتعودها الصبيان ، وينشئون عليها : « تسوقهم إلى مرتبة الفلاسفة العالية » ^(١٦) .

الحق والخير والجمال هي الغايات التي يتطلع إليها الإنسان وهذه الثلاثة هي بذاتها مثل أفلاطون الأخيرة .

والنفس جوهر مخالف للجسد ، لأن : « النفس تقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال . . . ولهذا العلة يزداد الإنسان فهماً كلما ارتاض وتخرج في العلوم والآداب . فليست النفس إذن جسماً » ^(١٧) .

وتنقسم النفس إلى ثلاث قوى : النفس الناطقة والغضبية ، والشهوانية والناطقة هي القوة التي بها يكون التفكير والنظر في حقائق الأمور ، والغضبية هي

(١٦) تهذيب الأخلاق ص ٢١ .

(١٧) تهذيب الأخلاق ص ٣ .

(١٤) تهذيب الأخلاق ص ٢ .

(١٥) تهذيب الأخلاق ص ١٩ .

التي يكون بها التجدة والإقدام على الأهوال ، والشهوانية يكون بها طلب الغذاء والملاذ .

وفضيلة النفس الناطقة الحكمة . وآلاتها الذكاء وهو سرعة انقذاح النتائج ومسهولتها على النفس ، والذكر وهو ثبات ما يخلصه العقل أو الوهم من الأمور ، والتعقل وهو موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعية بقدر ما هي عليه ، وصفاء الذهن وهو استعداد النفس لاستخراج المطلوب ، وجودة الذهن وهو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم ، ومسهولة التعليم وهي قوة للنفس وحدة للفهم بها تدرك الأمور النظرية (١٨) .

والمعلومات بعضها مكتسب ، وبعضها فطرى .

« فإن النفس وإن كانت تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس ، فلها من نفسها مبادئ أخرى . وأفعال لا تؤخذ عن الحواس ألبتة . وهي المبادئ الشريفة العالية التي تنبئ عليها القيامات الصحيحة .

وبالجملة فإن النفس إذا علمت أن الحس صدق أو كذب ، فليست تأخذ هذا العلم من الحس . . . وهذا العلم من ذاتها وجوهرها أعنى العقل » (١٩) .
وإذا أردنا التعبير عن هذا الرأي بأسلوب آخر ، نقول إن مادة المعلومات مكتسبة ، أما صورتها ففطرية .

والأحوال الخلقية بعضها مكتسب وبعضها فطرى « فمنها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج ، ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولاً حتى يصير ملكة واختياراً » .

« ولهذا اختلف القدماء فقالوا من كان له خلق طبيعى لم يتقل عنه ، وقال آخرون ليس شيء من الأخلاق طبيعياً » .

وقد اختار ابن مسكويه المذهب الثانى وهو أننا « نتقل بالتأديب والمواظب إما سريعاً أو بطيئاً . ولأن الرأى الأول يودى إلى إبطال قوة التمييز والعقل ، وإلى رفض

(١٨) تهذيب الأخلاق ص ٤ .

(١٩) تهذيب الأخلاق ص ٧ ، ٨ .

السياسات كلها ، وترك الناس هجماً مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة جداً .

فالصبي قابل للتعليم والتأديب .

ثم وصف ابن مسكويه العلوم والفضائل التي يأخذ الناس بها أنفسهم منذ الصبا .

«فن اتفق له في الصبا أن يرى على أدب الشريعة ، ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها ، ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين ، ثم ينظر في الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان ، ثم يتدرج في منازل العلوم ، فهو السعيد الكامل» (٢٠) .

في هذا النهج نجد ابن مسكويه يمزج بين الدين والفضيلة والعلم على الأخص علم الحساب والهندسة . وهذا شبيه بالفيناغوريين ، ويمتج أفلاطون .

ثم ذكر ابن مسكويه فضلاً في تأديب الأحداث والصبيان خاصة نقل أكثره من كتاب بروسن (٢١) .

وأكبر الظن أن بروسن هذا نقل عن فلوطرخس ، ويقول العرب عنها إنها رسالة أفلاطون في آداب الصبيان ، والتأديب في هذه الرسالة ينصرف إلى أبناء الأشراف الذين : «لا يربون أولادهم بين حشمهم وخدامهم خوفاً عليهم من الأحوال التي ذكرناها» (٢٢) .

والكلام في هذا الفصل ينصب على التربية والتأديب ، لا على كسب العلوم . وقد كانت عناية الروم والفرس متجهة في الغالب إلى تهذيب الخلق وتعليم الأدب . ولا ننسى أن الروم كانت دولة أرستقراطية انزلت فيها الطبقات بعضها عن بعض ، على عكس الإسلام الذي سوى بين الناس في الحقوق ، ومحا فوارق الطبقات .

(٢٠) ص ١٧ .

(٢١) ص ١٩ - ٢٥ : راجع مقدمة الأب لويس شيخون في كتاب مقالات فلسفية لبعض مشاهير وفلاسفة

العرب ص ٥٣ .

(٢٢) ص ٢٢ .

قال ابن مسكويه نقلاً عن هذا الكتاب ، وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب
أولاد الأغنياء والمترفين .

لذلك كانت آداب السلوك التي ذكرها بأهل الطبقة الرفيعة أليق .
ونفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ، ولأها رأى وعزيمة تميلها من
شيء إلى شيء . فإذا نقشت بصورة قلبها نشأ عليها واعتادها . وهذا يطابق الرأي
الذي ذهب إليه من قبل ، وقد ساد الرأي بنصه عند أغلب المفكرين في الإسلام .
وأولى الآداب بالتقديم أدب المطاعم . التي تراد للصحة لا للذة . ولدفع الجوع
وحفظ صحة البدن . ولا يرغب الصبي في الألوان الكثيرة ، وإذا جلس مع غيره
فلا يبادر إلى الطعام ، ولا يحدق إليه شديداً ، ولا يسرع في الأكل .
أما الحلوى والفاكهة فينبغي أن يمتنع عنها ألبتة إن أمكن ، وإلا فليتناول أقل
ما يمكن ، فإنها تسنحيل في بدنه وتكثر انحلاله . ونقول إن هذا الرأي لا يتفق
ومبادئ الطب الحديث .

«فأما النيذ وأصناف الأشرية المسكرة فيأباه وإياها ، فإنها تضره في بدنه
ونفسه ، وتحمله على سرعة الغضب والتهور والإقدام على القبائح ، ولا يحضر
بجالس أهل الشرب إلا أن يكون أهل المجلس أدباء» : وهذا الرأي أجنى
لا إسلامي ، إذ المعلم ينهى عن الخمر لأن الدين حرمها ، ولا ينصح ألبتة بحضور
بجالس الشراب ، ثم إن هذه المجالس يجتمع فيها الخاصة لا العوام ، وهذا يطابق
ما ذكرناه من أن هذا الفصل يعالج تأديب الصبيان في الطبقة الرفيعة .
ويمنع الصبي من النوم الكثير فإنه يقبحه ويفلظ ذهنه ، ولا يعود النوم بالنهار
ألبتة ، ويعود الحركة والمشى والرياضة .

فالغاية من هذه الآداب كلها هي أن يعود الخشونة ويصلب بدنه . ولذلك :
«يؤاخذ بأشبهاته المآكل والمشارب والملابس الفاخرة . ويعلم أن أولى الناس
بالملايس الملونة والمنقوشة النساء اللاتي يتزين للرجال . وأن الأحسن بأهل النبل
والشرف من اللباس البياض» .

وأبلغ مما سبق في تعود الخشونة والرجولة : «أنه ينبغي إذا ضربه المعلم ألا يصرخ

ولا يستشفع بأحد ، فإن هذا فعل المالك ، ومن هو حوار ضعيف .
ومع ذلك فالصبي : «يؤذن له في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً ليستريح
إليه من تعب الأدب» .

ومما يجرى مجرى الرجولة والأدب أن يحفظ الأخبار والأشعار التي تعوده
لأدب : ويحذر النظر في الأشعار السخيفة ، وما فيها من ذكر العشق وأهله ،
وما يوهمه أصحابها أنه ضربه من الظرف . ورقة الطبع ، فإن هذا الباب مفسدة
للأحداث جداً .

وطريقة التأديب إذا وقع من الصبي مخالفات هي التغافل أولاً ، ثم التوبيخ ،
ثم الضرب ، «لأنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة» . ويمدح
بكل ما يظهر منه من خلق جميل .

هذه هي خلاصة ما ذكره ابن مسكويه في التعليم والتأديب ، ومن الواضح أنه
تأثر في آرائه بالفلسفة ، فأخذ عن أفلاطون ، وعن أرسطو ، وعن الفيثاغوريين
والإسكندرانيين ، وعن الفرس وجعل من كل ذلك مذهباً جديداً في الأخلاق ،
مؤتلفاً إلى حد كبير .

فهو يرمى إلى السعادة بالترقي إلى الحق والخير والجمال «مع حسن الحال في
الدنيا ، وطيب المعيشة ، وجميل الأحذوثة» (٢٣) .
وهذا الرق يقبله المرء بالتأديب .

ابن سينا :

عرض ابن سينا في كتاب السياسة (٢٤) لواجب الرجل نحو ولده ، فبسط أحوال
تعليمه وتأديبه بكلام يدل على نفاذ الفكر وصدق النظر ، مما هو جدير بمقام
فيلسوف الإسلام الشيخ الرئيس ابن سينا .

(٢٣) تهذيب الأخلاق ص ٢١ .

(٢٤) مقالات فلسفية لبعض مشاهير فلاسفة العرب - بيروت ١٩١١ ، المقالة الأولى : كتاب السياسة

لابن سينا . وهناك شك في نسبة هذه الرسالة لابن سينا ، لبعدها عن أسلوبه .

وأراؤه تدل على حرية شديدة في التفكير ، على العكس من ابن مسكويه الذي تقيده آراء أفلاطون وأرسطو ، وأراد أن يطبقها على البيئة الإسلامية ، فخرجت لذلك مغايرة لطبيعة المسلمين . أما ابن سينا فينظر إلى البيئة الإسلامية ، ويتحرى الأساليب الملائمة لها في التعليم والتهديب ، بما يتفق مع العقل السليم .

« إذا فطم الصبي عن الرضاع بدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللثيمة ، فإن الصبي تتبادر إليه مساوئ الأخلاق ، فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة » .

هذه هي نظرية تكوين العادة وصعوبة الإقلاع عنها ، وأغلب المسلمين على هذا الرأي ، ولهم في ذلك حكم ماثورة مشهورة مثل : « التعلم في الصغر كالنقش على الحجر » إلى غير ذلك .

وقد رأينا القاسبي أيضاً ينصح بتكوين العادات الحسنة منذ الصغر ، ومنها المبادرة بتعليم الصبي الصلاة .

« فإذا اشتدت مفاصل الصبي ، واستوى لسانه ، وتبأ للتلقين ، ووعى سمعه أخذ في تعلم القرآن وصور له حروف الهجاء ، ولقن معالم الدين » .

وابن سينا هنا يرجع بالذاكرة إلى نفسه حين كان صبياً صغيراً ، فأحضر معلم القرآن ، ولم يبلغ العاشرة من عمره حتى أتى على القرآن وعلى كثير من الأدب ، كما ذكر في سيرة حياته .

فهو يريد أن ينشئ أبناء المسلمين على الصورة التي نشأ هو عليها ، ولا يجد في ذلك حرجاً أو مطعناً ، ولهذا أقر هذه الطريقة التي تبدأ بتعليم القرآن والكتابة ، كما جرت العادة في الكتابيب .

ويرى ابن سينا : « أن يروى الصبي الرجز ثم القصيدة » ، وهذا الاهتمام الشديد بالشعر والنص عليه ، دليل على عناية ابن سينا بالفن وأثره في النفس ؛ وقد كان ابن سينا شاعراً نظم القصيدة العينية في النفس ، وله قصيدة في المنطق . وأرجوزة في الطب ، وعدة قصائد في الزهد وغير ذلك فلا غرابة أن يبحث على تعليم الشعر ، وقد رد البحور الشعرية إلى الأوزان الموسيقية في « جوامع علم الموسيقى » .

ومن رأى ابن سينا أن يكون التعليم جميعاً في المكتب ، لا فردياً على مؤدب خاص . وكانت عادة الأغنياء والأشراف اتخاذ المؤدبين لأولادهم . «لأن انفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب لضجرتها» . ولأن الصبي ألقن ، وهو عنه آخذ وبه آنس» .

ووجود الصبي مع غيره من الصبيان «أدعى إلى التعلم والتخرج فإنه يباهى الصبيان مرة ويغبطهم مرة ويأنف عن القصور عن شأوهم مرة . ثم إنهم يترافقون ويتعاضون الزيارة ويتكلمون ويتعاضون الحقوق ، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة ، وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لهمهم وتمرين لعاداتهم» .

وليس في هذا الكلام جديد عما ذكر القاسبي الذي جذب المخامرة بين الصبيان ، وأجاز اتخاذ العريف لما في ذلك من فائدة في تخريج الصبيان :

إنما الجديد النصيحة لأبناء الطبقة الرفيعة أن يتصلوا بأبناء الشعب في لكتاتيب مما يبدل على تأصل الروح الديمقراطية في قلب ابن سينا . ولم يكن ابن مسكويه على هذا الرأي ، لأن رسالة تأديب الأحداث التي نقلها في كتابه إنما تصف تعليم صبيان الخاصة فقط وينصرف الرأي فيها إلى المؤدب وتلميذه ، لا المعلم وصبيانه .

وقيمة المعلم عند ابن سينا في خلقه وسيرته ، لذلك ينبغي أن يكون : «عاقلاً ، ذا دين ، بصيراً برياضة الأخلاق ، حاذقاً بتخريج الصبيان ، وقوراً رزيناً ، بعيداً عن الحقة والسخف ، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي» .

ورأى ابن سينا في العقوبة لا يخرج عما هو معروف عند فقهاء المسلمين ، وعما ذكر القاسبي ، فهو بالترهيب والترغيب ، والإيناس والإيجاش ، والحمد مرة والتوبيخ مرة أخرى والضرب بعد الإرهاب الشديد .

ونحب أن نقف قليلاً عند رأى جديد لابن سينا لم يسبقه إليه أحد في الإسلام ، وهو من الآراء الحديثة في التربية وعلم النفس . ذلك هو مسامرة ميول الصبي ، ثم توجيه الصبي إلى الصناعة أو المهنة التي تتفق مع ميوله .

ذلك أنه : « ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية ، لكن ما شا كل طبعه وناسبه ، وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب ، وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملازمة ، إذن ما كان أحد غفلاً من الأدب ، وعارياً من صناعته ، وإذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف وأرفع الصناعات » .
« وينبغي للمدير الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ، ويسير قريحته ، ويختبر ذكائه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك » .
ولكن ابن سينا لم يوضح لنا طريقة اختبار الذكاء ، وميزان الطبع والقريحة . ولعله ترك ذلك لفراصة المعلم ورأيه ، والجديد في علم النفس الحديث هو ابتكار اختبارات الذكاء ، واختبارات الشخصية .

الغزالي :

ذكرنا الترية عند إخوان الصفاء ، وعند ابن مسكويه ، وعند ابن سينا ، لنبين ما يراه بعض الفلاسفة في تعليم الصبيان .
ونذكر الآن رأى المتصوفة ، وستتخذ الغزالي ممثلاً لهم ، لأنه أوفى من كتب في هذا الموضوع ، ولأن آراءه أوسع انتشاراً من غيره .
يرى أبو حامد الغزالي المتوفى عام ٥٠٥ هجرية ، أن قيمة المعلم كبيرة في انتشار المذاهب المختلفة ، ونشوء الناس عليها ، والمذهب : « هو نمط الآباء والأجداد ، ومذهب المعلم ، ومذهب أهل البلد الذي فيه النشء وذلك يختلف باختلاف البلاد والأقطار ، ويختلف بالمعلمين » (٢٥) .
وليس غريباً أن يبنه الغزالي على قيمة التعليم والمعلمين ، وهو الذي كان معلماً في إحدى مدارس بغداد ، ثم اعتزل التعليم وصناعته ليكون معلماً للناس كافة عن طريق كتبه التي ألفها ، وأكبرها « إحياء علوم الدين » .
وبعد أن طاف الغزالي بجميع المذاهب في الكلام والفلسفة ، انصرف عنها ، واطعن عليها ، وآثر طريق التصوف .

ولكنه اعتنق هذا المذهب عن روية وتفكير ، لا عن اتباع وتقليد .
 وجانب العمل متفق عليه من الصوفية ، فهو محو الصفات الردية ، وتطهير
 النفس من الأخلاق السيئة ، ولكن جانب العلم مختلف فيه . فإن الصوفية
 لم يحرصوا على تحصيل العلوم ودراستها ، وتحصيل ما صنفه في البحث عن حقائق
 الأمور ، بل قالوا الطريق المجاهدة بمحو الصفات المذمومة ، وقطع العلاقات كلها ،
 والإقبال بكل همة على الله . وأما النظار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإفضاءه إلى
 المقصد ، ولكن استوعروا هذا الطريق . . فالاشتغال بتحصيل العلوم . . أولى فإنه
 يسوق إلى المقصود سبابة موثوقاً بها^(٢٦) .

وأفضل المعلومات وأعلاها وأشرفها ، هو الله الصانع المبدع الحق الواحد ،
 وهذا العلم ضروري واجب تحصيله على جميع العقلاء كما قال ﷺ : « طلب العلم
 فريضة على كل مسلم » ، وهذا العلم لا يبنى سائر العلوم ، بل لا يحصل إلا بمقدمات
 كثيرة . وتلك المقدمات لا تنتظم إلا من علوم شتى^(٢٧) . وهذه المقدمات التي تجرى
 منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو ؛ ومن الآلات علم كتابة الخط^(٢٨) .
 وإلى جانب ذلك فالعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ، فإنه
 وصف كمال الله سبحانه . وتعرف فضيلة العلم بثمرته ، وهي القرب من الله تعالى .
 أما في الدنيا فالعز ، والوقار ، ونفوذ الحكم على الملوك ، ولزوم الاحترام في
 الطباع^(٢٩) .

والعلم الذي هو فرض عين على كل مسلم : اعتقاد وفعل وترك ، أى اعتقاد
 بالله ، وفعل بما أمر الله ، وترك لما نهى عنه .
 والعلم الذي هو فرض كفاية : فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا ،
 كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، والحساب فإنه ضروري للمعاملات
 وقسمة الوصايا والموارث^(٣٠) .

(٢٦) ميزان العمل ص ٣٤ .

(٢٧) الرسالة اللدنية ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢٨) الإحياء ج ١ ص ١١ .

(٢٩) الرسالة اللدنية ص ٤٨ .

(٣٠) الإحياء ج ١ ص ١٥ .

وهنا نرى أن الغزالي يقترب من رأى القابسي وهو رأى أهل السنة ، الذين يجعلون تعلم القرآن والصلاة وبعض النحو والخط من العلوم الضرورية ، أما الحساب فليس بلازم على المعلم إلا أن يشترط عليه .

أما الطريق إلى تحصيل العلوم فهو على وجهين :

١ - التعلم الإنساني وهو التحصيل بالتعلم من خارج .

٢ - التعليم الرباني وهو الاشتغال بالتفكير من داخل .

والتفكير استفادة النفس من النفس الكلي ، والنفس الكلي أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع العلماء والفضلاء^(٣١) إلى أن قال : « والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة كالبذر في الأرض ، والتعلم هو إخراجها من القوة إلى الفعل » .
وليس ما يقوله الغزالي مبتكراً ، فهذا مذهب ابن سينا والفارابي من قبل ، وكلاهما أخذ عن الأفلاطونية الحديثة .

وقد مزج الغزالي هذه الآراء الفلسفية بما يقوله المتصوفة ، وما لا يخرج عن ذلك وإنما بأسلوب آخر . « وقال قوم من المتصوفة : إن للقلب عيناً كما للجسد . فيرى الظواهر بالعين الظاهرة ، ويرى الحقائق بعين العقل »^(٣٢) .

والإنسان لا يقدر أن يتعلم جميع الأشياء : الجزئيات والكليات ، وجميع العلوم ، بل يتعلم شيئاً ، ويستخرج بالفكر من العلوم شيئاً ، وإذا انفتح باب الفكر على النفس علمت كيفية طريق التفكير ، وكيفية الرجوع بالحدس إلى المطلوب^(٣٣) .

وهذا المذهب في اكتساب المعرفة عن طريق الحدس أولاً ثم بالفكر والقياس والحدس ، هو مذهب ابن سينا ، كما هو مذكور في النجاة وغيره من الكتب .
أما التعليم الرباني فعلى وجهين : إلقاء الوحي بأن يقبل الله تعالى على تلك النفس إقبالاً كلياً ، وينظر إليها نظراً إلهياً ، ويصير العقل الكلي كالعلم ، والنفس

(٣١) الرسالة اللدنية ص ٢٩ .

(٣٢) الرسالة لللدنية ص ٣٠ .

(٣٣) الرسالة اللدنية ص ٤٠ ، ٤١ .

القدمية كالتعلم ، فبحصل جميع العلوم لتلك النفس من غير تعلم وتفكر .
والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفاتها وقبولها
وقوة استعدادها . والعلم الذى يحصل عن الإلهام يسمى علماً لديناً . ويكون لأهل
النبوة والولاية^(٣٤) .

وبحصول العلم للذنى باتباع الطرق الآتية :

- ١ - تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر منها .
 - ٢ - الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة .
 - ٣ - التفكير ، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ، ثم تفكرت في
معلوماتها بشروط التفكير . يفتح عليها باب الغيب^(٣٥) .
- فخلاصة مذهب الغزالي أن : «الأولى أن يقدم طريق التعليم فيحصل من
العلوم البرهانية ما للقوة البشرية إدراكه بالجهد والتعليم . . فإذا حصل ذلك على
قدر إمكانه . . فلا بأس بعده أن يؤثر الاعتزال عن هذا الخلق ، والإعراض عن
الدنيا ، والتجرد لله»^(٣٦) .

وهذا رأى هو صورة من حياة الغزالي ، لأنه لم يتصوف إلا في آخر حياته ،
بعد أن اشتغل بتحصيل العلوم .
ونعود إلى الكلام على تعليم الصبيان .

وينبغى أن نعلمهم منذ تنصفر ، لأن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر^(٣٧) .
والطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدّها . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة
ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش فيه^(٣٨) .
ثم نقل الغزالي في هذا الفصل الخاص برياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه
تأديبهم ما ذكره ابن مسكويه في كتاب تهذيب الأخلاق نقلاً عن بروسن ، وذلك
بنفس الترتيب في الآراء ، وبألفاظه في أكثر المواضع ؛ وكل ما في الأمر أن الغزالي

(٣٧) ميزان العمل ص ٣٨ .

(٣٨) الإحياء ج ٣ ص ٦٢ .

(٣٤) الرسالة اللدنية ص ٤١ ، ٤٤

(٣٥) الرسالة اللدنية ص ٤٨ .

(٣٦) ميزان العمل ص ٣٨

حذف منه الأغراض الفلسفية التي شرحناها سابقاً ، ووضع أغراضاً جديدة تلاءم مع مذهبه في التصوف قال في بيان الغرض من تأديب الصبيان : « وإنما المقصود منها أن يقوى بها على طاعة الله . . . وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى » (٣٩) .

وذكر الغزالي في مكان آخر الشروط التي ينبغي أن يأخذ بها المتعلم (٤٠) وهي :

١ - تقديم طهارة النفس على رذائل الأخلاق ، إذ لا تصلح عبادة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خباثت الأخلاق .

٢ - أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن .

٣ - ألا يتكبر على العلم ، ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية .

٤ - أن يحذر الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف

الناس ، فإن ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع .

٥ - ألا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحموده ، ولا نوعاً من أنواعه ،

إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته . . . فإن العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض .

٦ - ألا ينحوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعى الترتيب وينتدئ

بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً ، فالخزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه .

٧ - ألا ينحوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً

ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض .

٨ - أن يعرف السبب الذي به يدرك الشرف في العلوم ، فإن ثمرة علم الطب

الحياة الدنيوية ، وثمره الدين الحياة الأخرى ، فيكون علم الدين أشرف .

٩ - أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتحميله بالفضائل ، وفي المال

القرب من الله . . . ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه وممارسة السفهاء ومباهاة

(٣٩) الإحياء ج ٣ ص ٦٤ .

(٤٠) الإحياء ج ١ ص ٤٣ - ٤٧ .

الأقران ، ولا ينبغي أن ينظر بعين الحقدارة إلى سائر العلوم التي هي فرض كفاية .
١٠ - أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد ، كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد ،
والمهم على غيره .

أما واجبات المعلم فهي :

- ١ - الشفقة على المتعلمين ، وأن يجربهم مجرى بينه .
- ٢ - ألا يطلب على العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً .
- ٣ - ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وأن يبينه أن الفرض من طلب العلوم
القرب من الله دون الرياسة والمنافسة والمباهاة .
- ٤ - أن يزرع المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ،
ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ .
- ٥ - ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه ، كعلم اللغة إذ عادته تقبيح
علم الفقه .

- ٦ - أن يقتصر المتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما يبلغه عقله .
 - ٧ - أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الحللى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء
هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الحللى ، ويشوش عليه قلبه .
 - ٨ - أن يكون المعلم عاملاً بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله .
- في القواعد السابقة بعض المبادئ في التعليم تعتبر من أسمى ما وصل إليه علماء
التربية وأهمها الترابط بين العلوم ، والبدء بالأهم فالمهم ، وبالواضح قبل الغامض .
وبالأسبق في الترتيب .

ونأخذ على الغزالي ما يعيبه على المعلم من أخذ الأجر على التعليم ، فهذا من
الآراء المثالية التي لا تتفق مع الواقع . وهذا يختلف عن رأى القابسي .
ولكن الغزالي بسط هذه المبادئ العامة في إيجاز دون أن يخوض في تفصيل
شئون التعليم والتربية . فلم يتكلم على المنهج ، أو مكان التعليم ، أو اليوم المدرسي ،
أو العقاب ، أو اختيار الصبيان إلى آخر ما جاء في رسالة القابسي .
وبعد فإننا نرى أن رأى الغزالي في التعليم جزء من مذهبه في التصوف ، وهو

مخالف بعض الشيء لأهل السنة .

فهو يتفق معهم في الغرض وهو معرفة الله تعالى ، ومعرفة العبادات التي أمرنا بها ، وأنواع الأفعال التي نهانا عنها .

ولكن الطريقة مختلفة ، فهو ينصح بطريق الصوفية وهو مجاهدة النفس ورياضتها للوصول إلى قرب من الله . وقد جرح الغزالي الفقهاء والمتكلمين كما جرح الفلاسفة ، فقال : « فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين »^(٤١) .

الزرنوجي :

ومن الكتب الذائعة الذكر عن العرب : « تعليم المتعلم طريق التعلم » لبرهان الدين الزرنوجي المتوفى سنة ٥٩١ هـ . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية . وبعده الدكتور إبراهيم سلامة ، إلى جانب كتاب القابسي ، أهم كتابين في التربية . وقد ترجم عناوين فصوله ، ثم عرض بعض آرائه في إيجاز^(٤٢) . وعندنا أن السرفي شهرة هذا الكتاب راجع إلى عتوانه من جهة ، وإلى أنه كتاب خاص بالتربية والتعليم فقط ، ومثل هذه التأليف الخاصة قليلة عند المسلمين .

والرأى عندي أن قيمة هذا الكتيب ضئيلة الشأن .

فهو صغير الحجم لا يكاد يبلغ فصلاً من الفصول المؤلفة في التربية في كتب الفقه .

ولم يأت صاحبه بجديد ، وإنما ذكر ما هو معروف متداول ، ومزج الآراء بالحكايات وبعض الأشعار والأمثال .

وكثيراً ما ينزل إلى مستوى العامة في الاعتقاد بأوهام لا تستند إلى أساس علمي .

قال فيها يمنع الرزق كلاماً لا ينبغي أن يقوله العلماء ، منه : « كنس البيت في الليل ، وحرق قشر البصل والثوم ، والامتشاط بمشط منكسر ، والتعمم قاعداً ،

(٤١) الإحياء ج ١ ص ٤٦ .

(٤٢) انظر Bibi. Saluma هذا وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية اختصاراً .

والتسورول قائماً» (٤٣) .

وهو يجرى في هذا الكتاب بجرى أهل السنة المائلين إلى التصوف ، حين اشترط لطالب العلم أن : « يشغل بالشكر باللسان والجنان ، ويرى الفهم والعلم والتوفيق من الله ، ويطلب الهداية من الله بالدعاء منه والتضرع إليه ، فأهل الحق وهم أهل السنة والجماعة طلبوا من الله تعالى » (٤٤) .

وكان الغزالي من قبل متصوفاً ، ولكنه كما ذكر عن نفسه أنه من فريق النظار ، أى أهل النظر العلمى . ولذلك أوجب الغزالي معرفة العلوم في أول العمر ، وهى التى تحصل بالدأب والاجتهاد ، ثم ينقطع الإنسان إلى التصوف في آخر العمر بعد تحصيل العلوم . أما الزرنوجى فإنه بعد أن نصح لطالب العلم بالذاكرة والمناظرة والتأنى والتأمل ، عاد فذكر أشياء لا توصل إلى العلم ، وإنما تصلح لغايات أخرى . « قال أبو حنيفة - إنما أدركت العلم بالحمد والشكر » (٤٥) والحمد والشكر بآتيان بعد تحصيل العلم ، وليس الحمد والشكر من أسباب تحصيله . ثم قال : « ولا يعتمد على نفسه وعقله بل يتوكل على الله ويطلب الحق منه » (٤٦) .

وهذه النصائح وأمثالها هى التى بثت في المسلمين روح التواكل والكسل وعدم الاعتماد على النفس .

وبدأ الزرنوجى ببيان أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وهو علم الحال كالصلاة والزكاة وما إلى ذلك ، وبعد ذلك ينتقل إلى علم المآل .

وينبغى لطالب العلم أن يصبر على أستاذ بعينه ، ولا يشتغل بفن قبل أن يتقن الأول ، وأن يعظم أستاذه ويوقره ، وأن يجود الكتابة ولا يقرمط « وينبغى ألا يكون في الكتاب شيء من الحمرة ، فإنها صنيع الفلاسفة لا صنيع السلف » (٤٧) .

وهذا منتهى الغاية في الجمود ، والتعسف في الرأى دون علة معقولة ، إذ أى

(٤٦) ص ٤٨ .

(٤٧) ص ٢٥ .

(٤٣) تعليم المتعلم ص ٧١ - ٧٢ .

(٤٤) ص ٤٨ .

(٤٥) ص ٤٧ .

عيب في الكتابة بالمداد الأحمر.

ولذة العلم من دواعي تحصيل العلم . أما الكسل والنسيان فعلاجهما تقليل الطعام . وينبغي أن يبدأ المتعلم بما هو أقرب إلى فهمه ، ولا يحفظ إلا بعد الفهم . أما التكرار فيتبع فيه الطريقة الآتية : وهي خمس مرات أول يوم . ثم أربع مرات في اليوم الثاني ، وثلاث مرات في اليوم الثالث ، ومرتان في اليوم الرابع ، ومرة في اليوم الخامس فهذا أدعى إلى الحفظ (٤٨) .

وقد ضبط علماء التربية الحديثة طريقة التكرار بالتجارب ، فوجدوا أن التكرار الموزع على أيام كثيرة ، أفضل من التكرار المستمر . وهذا يشبه ما يقوله الررنوجي ، ولكنه لا يعتمد فيه على التجارب .

ابن عبد البر :

ونعرض قبل أن نختم هذا الفصل بما ذكره ابن خلدون ، لكتاب آخر في التعليم هو «جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله» لابن عبد البر التمرى القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ .

وصاحب هذا الكتاب من أهل الحديث ، ويتبع منهجهم في التأليف والتفكير ، فهو لا يجادل ولا يسوق البراهين والأدلة ، وإنما يتلمس آثار السلف ، وقد ذكر المؤلف هذا المنهج في المقدمة ، فقال بعد ذكر الموضوعات التي سيعرض لها ثم يجيب عنها ، «فما روى عن سلف هذه الأمة ، لتتبع هديهم ، وتسلط سيولهم ، وتعرف ما اعتمدوا عليه من ذلك» (٤٩) .

والجزء الثاني من الكتاب دفاع عن طريقة أصحاب الحديث ، وفي وجوب الأخذ بالحديث في إقامة العلم ، وأتباع السلف ، وأن الرأي سبب في الوقوع في البدع .

فطريقة ابن عبد البر تماثل طريقة القابسي في التأليف ، إلا أن القابسي أكثر

(٤٨) ص ٥١ .

(٤٩) جامع بيان العلم ، ج ١ ص ٣ .

حرية ، لأنه يرجح آراء الفقهاء إذا اختلفت ، ويسلك في الرواية السبيل التي تتفق مع العقل وتلائم طبيعة الأشياء ، أما ابن عبد البر فيذكر الرأي ونقيضه بما ورد من أحاديث وآثار دون أن يرجع أحدهما على الآخر ، مثال ذلك ما جاء في ذكر النهي عن كتابة العلم ، ثم ما جاء عن الرخصة في كتابة العلم^(٥٠) .

وبدأ المؤلف بالكلام عن وجوب طلب العلم معتمداً على الحديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » بعد أن خرَّج هذا الحديث من عدة طرق ؛ ثم بين أن العلم منه فرض عين ومنه فرض كفاية ، وأن الأول هو معرفة أصول الإسلام ، كالاتقاد بوجود الله ، والصلاة ، والزكاة ، والحج .

ثم استطرد إلى الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها طالب العلم ، كالصبر والزهد في الطعام والمال والرياسة .

ونصح المؤلف أن يكون طلب العلم في الصغر ، لأن من تعلم العلم وهو شاب كان كوشم في حجر ، ومن تعلم العلم بعد ما يدخل في السن كان كالكتاب على ظهر الماء^(٥١) .

ابن خلدون :

واتبع ابن خلدون - المتوفى عام ٨٠٨ هجرية - مذهباً مخالفاً للفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة وأهل السنة ، وهو المذهب الذي ابتدعه وسبق به عصره ، نعى المذهب الاجتماعي .

ذلك أن الإنسان حيوان مفكر اجتماعي ، خاضع في صلة بعضه ببعض لقوانين اجتماعية ، في جميع أمور معاشه وعمرانه

ويمتاز الإنسان عن الحيوان بالفكر الذي يهتدى به لتحصيل معاشه ، والتعاون عليه بأبناء جنسه ، والاجتماع المهيب لذلك التعاون : « وعن هذا الفكر تنشأ العلوم » . فيكون الفكر راعياً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات ، فيرجع إلى

(٥٠) ج ١ ص ٦٣ - ٧٢ .

(٥١) ص ٨٢ .

مَنْ سبقه بعلم ، أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك ، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقى ذلك عنهم» (٥٢) .

فالتعليم ضروري وطبيعي في البشر لحاجة الإنسان إلى معرفة العلوم المختلفة التي لا تتيسر بالفهم والوعى فقط ، بل بملكة خاصة . «والحصول على هذه الملكة في العلم أو الفن يكون بالتعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند أهل كل أفتق وجيل» (٥٣) .

وانتشار التعليم ، وتقدم العلم ، متوقفان على الحضارة ، «والمثال في ذلك أن القبروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس . واستبحر عمرانها . وكان فيها للعلوم والصنائع أمواق نافقة ، ورسخ فيها التعليم ، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً» (٥٤) .

والتفاوت بين الناس ناشئ عن حصول الملكات بواسطة التعليم ، على عكس ما يظنه بعض الناس من أن هذا التفاوت راجع إلى اختلاف في حقيقة الإنسانية (٥٥) .

والعلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين ، علوم مقصودة بالذات كالعلوم الشرعية والطبيعية والإلهية ، وعلوم آلية ووسيلة لهذه العلوم ، كالعربة والحساب وغيرهما للشرعيات ، والمنطق للفلسفة . وينبغي أن يوجه الإهتمام إلى علوم المقاصد أكثر من وسائلها ، ولهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية ألا يستبحروا في شأنها (٥٦) .

والقرآن هو أول العلوم التي يتعلمها الصبي ، لأن تعليم الولد للقرآن شعار من شعار الدين ، أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان . . . وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعض من الملكات .

(٥٥) ص ٤٠٣ .

(٥٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠١ .

(٥٦) ص ٣٩٧ .

(٥٣) ص ٣٠٢ .

(٥٤) ص ٣٠٢ .

«وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً ، وهو أصل لما بعده» (٥٧) .
 وهذا مما أخذ به جميع المفكرين في الإسلام .
 ثم ذكر ابن خلدون بعد ذلك اختلاف الأمصار في الشرق والغرب في طريقة
 التعليم وما يبدءون به الصبي من العلوم المختلفة كما ذكرنا من قبل (٥٨) .

وعقد ابن خلدون فصلاً عن ضرر الشدة بالمتعلمين ، يدل على بصر شديد بعلم
 النفس لأن : «من كان مرباه بالعسف والقهر ، سطا به القهر ، وضيق على النفس
 في انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل . وحمل على الكذب والخبث
 وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه » . وهذا شبيه
 بما يذكره علماء التحليل النفساني المحدثون في وجود عقدة نفسية كامنة في
 اللاشعور هي التي تحرك أفعال المرء .

والعسف يفسد في الصبي معاني الإنسانية ، فيفقد الحمية المدافعة عن نفسه ،
 ويصير عيالاً على غيره .
 لذلك ينبغي للمعلم في متعلمه ، والوالد في ولده ، ألا يستبدوا عليهم في
 التأديب .

على أنه إذا استحق الضرب «فلا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا
 احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً» (٥٩) .
 وهذا هو رأي القابسي .

• • •

والذين ألفوا في التعليم من المتأخرين عن ذلك ، لم يفعلوا أكثر من تلخيص
 آراء المتقدمين دون ذكر المراجع التي رجعوا إليها ، كما هي الحال في أغلب الكتب
 المؤلفة في العصور المتأخرة في جميع العلوم الإسلامية .
 ومن هذه الكتب رسالة في رياضة الصبيان لشمس الدين الإنبائي ، واللؤلؤ

(٥٧) ص ٣٩٧ .

(٥٨) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٥٩) ص ٣٩٩ .

النظيم في روم التعلم والتعليم لشيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري . وتحرير
المقال لابن حجر الفيشمي ، وفضل علم السلف على الخلف لابن رجب البغدادي .
وكل من رجع إلى هذه الكتب يستطيع أن يعثر بسهولة على الأصل الذي
استمد منه أصحابها آراءهم . فهي إما لابن مسكويه كما فعل الإبنابي في نقل رسالة
تأديب الصبيان ، أو الغزالي ، كما فعل الأنصاري في نقل شروط المعلم والمتعلم .
أومما هو معروف في كتب الفقه والأدب .